المحاضرة الثالثة

1. مناهج البحث في علم النفس الاجتماعي:

العلم هو مجموعة منظمة من المعارف في مجال معين، أو هو مجموعة قوانين تفسر الظواهر في مجال ما، والمنهج العلمي هو الطريق الموصل إلى الكشف عن الحقائق في العلوم المختلفة، فالعلم يهتم بصياغة القوانين في مجال معين، هذه القوانين التي تفسر ظواهر هذا المجال، والمنهج هو الأسلوب الذي نصل به إلى هذه الظواهر.
ولكل علم من العلوم ميدانه وطبيعته الخاصة والظواهر المعينة التي يدرسها، ولذا فإن لكل علم منهج بحث خاص به، وإن كانت هذه المناهج جميعا تخضع بوجه عام إلى القواعد العامة للمنهج العلمي. **(ربيع، 2011، صفحة 65)**

ولا يمكن لأي باحث في أي مجال من مجالات علم النفس الاجتماعي، أن يختار طريقة البحث الملائمة لدراسة ظاهرة معينة، قبل أن يحدد طبيعة الظاهرة تحديدا دقيقا شاملا لجميع جوانبها، ثم يختار أنسب الطرق التي يمكن استخدامها في دراستها للتوصل إلى أدنى النتائج الممكنة في أقصر فترة زمنية متاحة، فقد تصلح طريقة لدراسة ظاهرة ما ولكنها لا تصلح لدراسة ظاهرة أخرى، ولا يمكن القول بأن هناك طريقة معينة تكون أفضل من كل الطرق البحثية على الاطلاق لأن ذلك غير منطقي.

ولكن من العقلانية أن تكون هناك طريقة أفضل من غيرها في دراسة ظاهرة معينة في حد ذاتها. ومهما اختلفت الطرق البحثية التي تتناول الظواهر الاجتماعية والسلوك في المجتمع بالدراسة والتحليل فإن الهدف العام منها واحد لا يتغير بتغير طبيعتها حيث تستهدف جميعا اكتشاف العوامل المتسببة في حدوث الظاهرة والعوامل المؤثرة فيها تحديدا إمكانية السيطرة على الظاهرة وإمكانية التحكم فيها، ومحاولة توجيهها إلى مسارها الصحيح بما يتفق مع نظام القيم السائد في المجتمع، ومن ثم يكون تحديد إمكانية التنبؤ بما ستكون عليه الظاهرة مستقبلا لتدعيم انتشارها إن كانت للصالح العام، أو التصدي لها إذ كانت مضرة به.

ومن أمثلة الظواهر الاجتماعية والسلوكية التي يجب ألا يغفل دراستها في علم النفس الاجتماعي:

- ظاهرة البطالة، السافرة منها والمقنعة.
- ظاهرة الإدمان على الخمور والمخدرات.
- ظاهرة الفساد الوظيفي، بما يتضمنه من بيروقراطية ورشوة.
- ظاهرة السلوك الاجرامي.
- ظاهرة السلوك المضاد للمؤسسات.

وغيرها من الظواهر الجديرة بالدراسة، والبحث من أجل معرفة مسبباتها والعوامل التي أدت إليها، والعوامل التي تؤثر فيها، وكيفية محاصرتها والتغلب عليها.

وبناء عليه يمكن تحديد الأهداف الأساسية لأي طريقة بحثية على أسس تجريبية في:

- التفسير
- الضبط
- التنبؤ

وفيما يلي عرض مختصر لأهم الطرق الحديثة المستخدمة لعلم النفس الاجتماعي على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر: (**الحميد، 2004، صفحة 43 ،44**)

أولا- منهج الاستبطان: الاستبطان أو التأمل الباطن هو ملاحظة الفرد لمحتويات شعوره من خبرات مختلفة ، هذه الخبرات قد تكون حسية أو عقلية أو انفعالية، ثم رواية هذه الخبرات رواية دقيقة وموضوعية.

ومن أمثلة الاستبطان: وصف شخص لحالته النفسية الانفعالية عندما يشاهد أحد أفلام الاثارة، بحيث يصف لنا الشخص ما يعانيه من خوف وخلع أو توتر أو شد عصبي أو فرح. (**ربيع، 2011، صفحة 67**).

ومن عيوب منهج الاستبطان أنه يقوم على رواية الخبرة الذاتية للشخص وهذه الخبرة الذاتية ضد ما يتسم به المنهج العلمي من موضوعية، كما أن اتباع منهج الاستبطان يخرج من دائرة علم النفس فروعا هامة مثل علم النفس الطفل، وعلم النفس المرضي، ذلك أن الأطفال ومرضى النفوس غير قادرين على ممارسة الاستبطان بدقة، ولكن الاستبطان لازم في مجال علم النفس التجريبي والاكلينيكي. (**ربيع، 2011، صفحة 67.68**)

ثانيا-الملاحظة: وهي منهج بحثي يقوم فيه الباحث بمراقبة الظاهرة السلوكية التي يدرسها أثناء حدوث هذه الظاهرة في تلقائية وعفوية في المجال الطبيعي وفي الظروف العادية مع تسجيل دقيق لكل ما يلاحظه الباحث من ملابسات تحيط بهذه الظاهرة السلوكية.

وقد يستعين الباحث في ذلك بأجهزة معينة مثل: أجهزة التسجيل الصوتي أو التسجيل بالصوت والصورة.

ويحتاج منهج الملاحظة إلى تدريب شاق ومجهود كبير من الباحث للتسجيل الظاهرة السلوكية تسجيلا دقيقا، ومن الأمثلة التي تطبق فيها الملاحظة ما يلي:

-دراسة السلوك الاجتماعي عند الأطفال من حيث اللعب والمشاركة فيه، والتواصل الاجتماعي بينهم، وما يقوم بينهم من تعاون أو تنافس أو صراع. (**ربيع، 2011، صفحة 68،69**)

ثالثا – المنهج التتبعي: المنهج التتبعي يقوم على تتبع ظاهرة نفسية معينة خلال المراحل العمرية المختلفة، وما يصاحب هذا النمو من أغراض وما يعترضه من مشكلات، وهو منهج يتطلب صبرا وجلدا من الباحث لأن البحث قد يستمر عدة سنوات.

ومن الأمثلة:

- تتبع نمو الذكاء لدى مجموعة من الافراد عبر المراحل العمرية المختلفة من الطفولة إلى المراهقة إلى الرشد، وتكون هذه الدراسة التتبعية مثلا مرة كل عام بحيث نجيب على الأسئلة منها هل نسبة الذكاء ثابتة أم متغيرة لدي نفس الشخص؟ وما السن التي يتوقف فيها نمو الذكاء؟
- تتبع نمو الجوانب الدافعية والانفعالية عبر مرحلتي الطفولة والمراهقة، وما يطرأ على هذه الدوافع والانفعالات من ضعف أو قوة أو نضج أو فتو، بحيث نجيب على أسئلة منها: متى يظهر الدافع الجنسي؟ ومتى يكتمل النضج الانفعالي للإنسان؟ وهل تختلف فترة الطفولة عن المراهقة وظاهرة التقلب الانفعالي؟....الخ (**ربيع، 2011، صفحة 69**)

ومن الدراسات الكلاسيكية الشهيرة التي استخدمت المنهج التتبعي دراسة **ترمان (وهو عالم نفسي أمريكي شهير**)التي قامت على دراسة **1500** طفل من ذوي الذكاء الرفيع من الجنسين وتتراوح أعمارهم بين **4و13** سنة – حيث تتبعهم خلال سنوات الطفولة ثم المراهقة ثم الرشد، وقد تبين من هذه الدراسة أنهم كانوا بوجه عام أكثر نجاحا من غيرهم في الدراسة والعمل وأصح أجساما وأقوى شخصية وأقوم خلقا وأكثر توفيق في الحياة

الزوجية والاجتماعية – ومن الطريف أن نذكر أن هذه الدراسة بدأت **1921**واستمرت (عشرات) السنوات، ونشرت نتائجها في خمسة مجلدات إلا أن المجلد الأخير من هذه الدراسة نشر بعد **وفاة ترمان (توفي عام 1956).** **(ربيع، 2011، صفحة 70)**

رابعا-المنهج التجريبي:

لو اقتصر العلم في بحوثه على انتظار وقوع الاحداث والظواهر لملاحظتها ودراستها لكان سيره بطيئا، لذا لا بد أن يتدخل الباحث فيرتب الظروف التي تؤدي إلى حدوث الظواهر ثم يلاحظ ما يحدث، وهذه التجربة، لأن التجربة هي ملاحظة مقصودة مقيدة بشروط تجعلها تحت مراقبة الباحث وإشرافه وهذا هو المقصود بالمنهج التجريبي.

ومعنى ذلك أن الباحث يقوم بأحداث الظاهرة التي يريد دراستها وضبط متغيراتها وعواملها وشروط حدوثها ضبطا مقصودا بهدف زيادة فهم الظاهرة وتطبق التجربة –كما هو واضح – على مجموعة أفراد. وفي غالب الأحيان يقتضي المنهج التجريبي استخدام مجموعتين في البحث العلمي واحدة تسمى المجموعة التجريبية والأخرى تسمى المجموعة الضابطة. المجموعة التجريبية هي التي يتم تعريضها لتأثير الظاهرة المراد دراستها أو معرفة أثرها، أما المجموعة الضابطة فهي مجموعة تتكافأ قدر الإمكان مع المجموعة التجريبية في جميع الأمور والعوامل ما عدا الظاهرة المراد دراستها. **(ربيع، 2011، صفحة 70)**

ويرى بعض الباحثين أن طريقة البحث التجريبي تعتبر أفضل الطرق البحثية لأنها تتسم بالبحثية المنزهة عن الاهواء الشخصية أو العوامل الذاتية، حيث يتمكن الباحث من السيطرة على الظروف المحيطة بالظاهرة المراد دراستها والتحكم في العوامل التي قد تؤثر عليها مما يعطي نتائج أكثر دقة من نتائج غيرها من البحوث الأخرى.

ومن انصار البحث التجريبي **"مورفي" 1965** ، يرى ان الباحث يمكن التعامل مع العوامل المؤثرة على الظاهرة تحت ظروف يمكن ضبطها والتحكم فيها، وذلك من خلال تصميمه للموقف الذي يتشابه مع الموقف الطبيعي الذي توجد فيه الظاهرة المراد دراستها، حيث يمكنه أن ينظم الموقف التجريبي في مختبره أو معمله بالكيفية التي تمكنه من تثبيت العوامل غير مرغوب فيها لدراسة العامل المراد معرفة تأثيره على الظاهرة التي تكون موضع الدراسة. **(الحميد، 2004، صفحة 51، 52)**

ويهدف البحث التجريبي بصورة عامة إلى استنتاج علاقة معينة بين مجموعتين من العوامل تسمى المتغيرات ، واستنتاج مدى تأثير أحداهما على الآخر، ويعرف المتغير بأنه عامل يمكن أن يوجد بقيم متغيرة، ويوجد نوعان أساسيان من المتغيرات هما :

- **المتغير المستقل:** حيث يتميز بأنه يؤثر في المتغيرات الأخرى التابعة له ولا يتأثر بها، ويمكن ضبطه والتحكم فيه بتغير قيمه لمعرفة مدى تأثيره في تغير قيم المتغيرات التابعة له.
- **المتغير التابع:** حيث أنه يتأثر بالمتغيرات المستقلة ولا يؤثر فيها حيث يمكن تغير قيمه بناء على ما يحدث من تغيرات في قيمة المتغير المستقل. **(الحميد، 2004، صفحة 53)**

ومن أمثلة البحوث التي تتبع المنهج التجريبي القائم على مجموعتين تجريبية وضابطة ما يلي:

- تجربة تدرس **(أثر الذكاء على النجاح في الدراسة)** حيث يمكن التصميم التجريبي متضمنا مجموعتين، الأولى تجريبية مكونة من مائة طالب من طلاب الصف الأول الاعدادي ويتميزون بمستوى رفيع من الذكاء، بحيث نسب ذكائهم بمتوسط قدره **120**على الأقل، والثانية ضابطة مكونة من مائة طالب من طلاب الصف الأول الإعدادي يتميزون بمستوى عادي من الذكاء بحيث تكون نسب ذكائهم بمتوسط قدره 100، وبالطبع يستخدم أحد اختبارات الذكاء لتحديد هذه النسب وذلك وفق شروط أهمها:

- أن طلاب المجموعتين الضابطة والتجريبية يدرسون في نفس المدرسة ويتعرضون لنفس المؤثرات المؤثرة على العملية التعليمية (كفاءة المعلمين -كفاءة الكتب الدراسية...).
- أن مستوياتهم العمرية متساوية ولتكن في حدود13 سنة.
- أن تتناسب مستوياتهم الاقتصادية والاجتماعية.

وبعد ضبط هذه الأمور التجريبية من التساوي أو التقارب بين أفراد المجموعتين التجريبية والضابطة في جميع المتغيرات ما عدا نسبة الذكاء، نجري مقارنة بين نتائج المجموعتين على امتحانات نهاية العام الدراسي، فإذا تفوقت المجموعة التجريبية على المجموعة الضابطة فإن ذلك معناه أن الذكاء يؤثر تأثيرا فعالا على النجاح في الدراسة.

ويتميز المنهج التجريبي بما يلي:

- ✓ إمكانية التحقق العلمي والضبط التجريبي في الظروف والعوامل المؤثرة في التجربة خاصة، مع توفر أجهزة علمية دقيقة تقيس الادراك والإحساس والانتباه...الخ، إلى جانب الاختبارات النفسية مثل اختبارات الذكاء والقدرات والميول والاتجاهات والمهارة اليدوية.
- ✓ أمكانية تكرار التجربة لأكثر من مرة للتأكد من صدق الفروض والاستنتاجات.
- ✓ إجراء التجارب سهلة نسبيا بالقياس إلى مناهج أخرى مثل الاستبطان أو الاكلينيكي.
- ✓ لا يتدخل في المنهج التجريبي انحيازيات الباحث أو تصوراته الشخصية.
- ✓ ورغم هذه المزايا فإن المنهج التجريبي عليه بعض التحفظات مثلا: هناك موضوعات كثيرة في علم النفس لا يمكن دراستها تجريبيا لأن في بعضها تعويض حياة إنسان للخطر.

فمثلا لا نستطيع أن نصمم تجربة عن أثر الفزع على ارتفاع ضغط الدم لأن إحداث حالة الفزع من شأنه إيذاء الانسان، كما لا نستطيع أن ندرس أثر الإهانة الشديدة على التوتر العصبي لأن تعرض شخص أو اشخاص للإهانة يتضمن إيذاء نفسي وبدني غير مبر.

وفي الحالات التي لا يصلح فيها المنهج التجريبي هناك مناهج بحث أخرى مناسبة. **(ربيع، 2011، صفحة 72)**

خامسا-المنهج الاكلينيكي:

قلنا أن المنهج التجريبي له حدوده فلا يمكن أن نعرض شخصا لخبرة نفسية مريرة أو أليمة أو صدمية لكي ندرس آثارها عليه أو على توازنه النفسي أو انضباطه الانفعالي، كما أننا لا يمكن أن نطلب من شخصين لكل منهما تاريخ وراثي معيب أن يتزوجا ويكونا أسرة لكي ندرس أثر هذا التاريخ الوراثي المعيب على الأبناء.

ومع ذلك فإن الظروف المحيطة تمدنا بعدد وافر من الأشخاص الذيم تعرضوا لخبرات نفسية أليمة أثرت تأثيرا بالفعل على توازنهم النفسي ودمرت انضباطهم الانفعالي، كما تمدنا هذه الظروف نفسها بأشخاص ذوي تاريخ وراثي معيب تزوجوا من الأقارب (لا اعتراض على زواج الأقارب إلا في حالات وجود عيوب وراثية في الاسرة) وظهرت

عيوب وراثية في الأبناء. هذه حالات يفرزها القضاء والقدر تلقائيا دون تدخل من الباحث، هنا حال الباحث كحال الطبيب الذي تأتيه الحالات المرضية تلقائيا دون أن يتدخل هو بحال في احداث المرض. هنا يكون منهج البحث في مثل هذه الموضوعات هو المنهج الاكلينيكي وهو منهج يقوم على الدراسة المتعمقة للحالات المرضية.

ومن الأمثلة المشهورة على المنهج الاكلينيكي الدراسة الكلاسيكية التي نشرها **(جودارد)** (عالم نفس أمريكي) عام 1912 عن أسرة **كاليكاك**. وبيان ذلك أن (**مارتن كاليكاك** وهو اسم رمزي لجندي في جيش التحرير الأمريكي اتصل بامرأة ضعيفة العقل وأنجب منها ابنا ضعيف العقل وبعد الحرب تزوج من فتاة عادية وأنجب منها طفلا عاديا. وتشير دراسات **(جودارد)** ومساعديه من الباحثين إلى أن الفرع الذي ينتمي إلى الجد ضعيف العقل لم يكن به من الأسوياء إلا عدد قليل جدا، أما الباقون فكانوا من ضعاف العقول أو المجرمين أو الخارجين عن القانون بحيث أطلق عليهم (الفرع الرديء **لكاليكاك**). أما الفرع الذي ينتمي إلى الجد العادي فكانوا من الاسوياء الناجحين في الحياة بحيث أطلق عليهم (الفرع الطيب **لكاليكاك**). **(ربيع، 2011، صفحة 72 ،73)**

والمنهج الاكلينيكي يقوم على العديد من الأساليب منها:

أ- **دراسة الحالة:** وهي استقصاء نفسي اجتماعي للفرد ومسح حالته الصحية وسجله الدراسي ومشكلات المهد والطفولة وسجله الدراسي والمهني ونموه الجسمي والنفسي.

ب- **المقابلة:** وهي محادثة موجهة بين شخصين: الاخصائي النفسي أو الاجتماعي من جهة والشخص الذي يخضع للدراسة أو المستفيد من جهة أخرى، بحيث يستطيع الاخصائي القائم بالمقابلة سبر أغوار ومعرفة الكثير عنه.

ت- **الاختبارات النفسية:** والاختبارات النفسية هي أدوات مقننة لقياس السلوك، تقوم على الدقة والموضوعية وبعض هذه الاختبارات تستطيع أن تصل إلى أعمال الشخصية الإنسانية بحيث تستجلي هذه الأعماق. وهناك العديد من الاختبارات النفسية مثل اختبارات الذكاء والقدرات والميول وسمات الشخصية، وأشهر الاختبارات استخداما في المنهج الاكلينيكي هي نوع اختبارات الشخصية والتي تسمى الاختبارات الإسقاطية، ويذكر أن هذه الاختبارات تستطلع الجوانب اللاشعورية الخبيثة عند البشر.

ويتميز المنهج الاكلينيكي بما يلي:

- قدرته على سبر أغوار النفس الإنسانية والوصول إلى خباياها ومستواها.
- قدرته على إعطاء صورة متكاملة عن شخصية الفرد من حيث جوانب القوة وز جوانب الضعف.
- يستعان بالمنهج الاكلينيكي في تعميق (نقطة معينة) في المناهج الأخرى، فقد تدرس بعض ذوي الذكاء الرفيع (الذين أشرنا إليهم عند الحديث عن المنهج التتبعي) دراسة مكثفة فنجري معهم مقابلات ونطبق عليهم بعض الاختبارات النفسية المتعمقة.

ولهذا المنهج صعوبات منها:

- يتطلب هذا المنهج أن يكون الباحث مدربا تدريبا طويلا وله خلفية علمية متينة قوية.
- يجب أن يتمتع الباحث الذي يستخدم المنهج الاكلينيكي بالحس المهني والبصيرة السيكولوجية وهي أمور تتطلب خبرة طويلة وتدريبا شاقا لا تتوفر للعديد من الباحثين.
- يتأثر هذا المنهج بالرؤية الذاتية للباحث. **(ربيع، 2011، صفحة 73)**

سادسا: المنهج التاريخي:

تتناول البحوث التاريخية الجيدة أحداث الماضي المتعلقة بالظواهر الاجتماعية والسلوكية المنشرة في المجتمع، وربطها بخصائصها السائدة وقت اجراء البحوث بها، مع التعرض بالتنبؤ بما ستكون عليه مستقبلا وفقا لما يوفر حولها من معلومات في الماضي والحاضر.

وتسهم البحوث التاريخية في دراسة الخصائص المتعلقة بالظواهر الاجتماعية والسلوك والتي قد تكون منتشرة في الماضي وما زال المجتمع يعاني من انتشارها حاليا للتعرف على مدى تأثير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة في الفترات الزمنية السابقة على مسبباتها ودوافعها وطرق الوقاية منها وعلاجها مثل ظاهرة البطالة أو ظاهرة ادمان المخدرات.

ومن ثم عمل مقارنة إيجابية بين الظروف المحيطة بانتشارها في الحاضر من أجل التوصل إلى أفضل السبل الممكنة لمحاصرتها والقضاء عليها مع أخذ الحيطة اللازمة فيما يتعلق باحتمال انتشارها في المستقبل ومداه الذي ستكون عليه.

كما يمكن للبحوث التاريخية دراسة الظروف الاجتماعية المؤثرة في الشخصية القومية لأي شعب من الشعوب حيث يمكن بواسطتها تحديد ابعادها ومكوناتها وخصائصها منذ نشأتها الأولى على أرضها وحتى وجودها الحالي، كما تفيد أيضا في التنبؤ بما يصدر عن أفرادها من سلوكيات عامة متوقعة في المواقف الحالية والمستقبلية التي تتشابه مع تلك التي مرت بها في العصور الماضية.

ويستعين الباحث بما يسمى بالتراث البحثي كأداة بحثية أساسية في بحوثه التاريخية بعد غربلته جيدا لتنقيته مما قد لا يتلاءم مع نظام القيم السائد في المجتمع، وللتأكد من صدق مصدره، وصحة ما ورد فيه، وحقيقة ما تضمنته، ويتضمن التراث البحثي عادة كل ما كتب ونشر وأعلن عنه حول الظاهرة المراد دراستها والبحث فيها سواء أكان ذلك في صورة أبحاث ودراسة سابقة أجريت بخصوصها، أم كتب ومؤلفات ومقالات ومذكرات ومخطوطات نشرت عنها أو شرائط تسجيل سمعي ومرئي، وافلام سينمائية ناطقة وصامتة، وصورة فوتوغرافية ورسومات بيانية وتوضيحية توفرت حولها، على أن يفحص الباحث كل هذه الوثائق التاريخية من صدق مصدرها ودقته، وصحة تاريخ صدورها وأهميته. **(الحميد، 2004، صفحة 50، 51)**